هو الحبّ؟

أنتيروس هو الشجاعة المطلوبة لمقاومة الفنتازيا الهائلة المتعلقة بالتلاشي بين ذراعي شخص، والشروع بدلاً من ذلك في العملية الصعبة المتعلقة بصنع حياة من الحب. ما يمثله أنتيروس، إن جاز لنا قول ذلك، هو الروحانية الصحية الكامنة من وراء مشاجرات الأحباب التي لو تم التأمل فيها والتعلم منها، لتبين أنها هي التي تصنع النضج. والمثل الذي يرجع إلى القرن السادس عشر، ينقل هذه الدينامية الأنتيروسية: «مشاجرات الأحباب، تجديد للحب». فلو أن إيروس هو إله الحب الذي يصوب على الناس أسهمه ويجعل الرغبة تصيبهم بالجنون، فأنتيروس هو إله الحب الذي يعارض الجنون بمزيج من برغماتية خالته وقوة أبيه.

ولكن الأسطورة تقول لنا ما هو أكثر. لقد كانت ثيميس خالة أنتيروس مشهورة أيضاً ببراعتها في تحويل الطاقات المتصارعة إلى قوة شافية. ووارثوها في يومنا هذا هم استشاريو العلاقات couples' therapists: وهؤلاء ينزعون إلى التركيز على كيفية تعامل أصحاب العلاقات غير المستقرة مع عواطفهم التي لا تعبر عن نفسها في الشجارات، بدلاً من أن يعلموهم كيفية تجنب الشجارات في المقام الأول. فقد يكون الغضب والكراهية، والخوف والإحساس بالضعف، فرصة حقيقية سانحة لكل العلاقات المتوترة. يوحي إليك الطبيب بأن هذا الشخص ليس نصفك الآخر، ولكنه شخص قد تجد معه لذاتك مزيداً من التكامل والكلية، وبأن الحياة لا تبلغ ذروتها المثالية بالحب حسب ما توحي الفنتازيات الرومنتيكية، ولكنك من خلال الحب قد تجد المزيد من الحياة. وبالعكس، يعلمك الاستشاريون أن العجز عن التعامل مع الصراع نذير جيد للطلاق.

ويجدر بنا التأمل في تفصيلة أن أنتيروس ما كان يساعد أخاه على النمو إلا وهما يلعبان معاً. وحين يفترقان، كان إيروس يتقلص إلى ما كان عليه. لعل في هذا تأكيداً على أهمية الالتزام في العلاقة، الالتزام الذي يعد بمثابة حاوية للأفراح والأتراح، متيحاً لكليهما العمل من خلاله. ذلك أنه ما من وجود لحالة «الثبات والنبات» السكونية، ولكنه الاستمرار في الاحتياج إلى الاشتراك في اللعب. تشير إلى أن العلاقة الجيدة تأتي من المستقبل لا من الماضي بحسب ما توحي به أسطورة أرسطوفانيس. فالحب منتج نصنعه، أكثر منه لقية تقع بين أيدينا.

في كتابه «أسطورة أنتيروس المنسية» Anteros: A Forgotten Myth (الصادر 2011) يجمع كريج ستيفانسن الدلائل على أن شقيق إيروس قد لا يكون اختفى تمام الاختفاء. فهو في هذا الكتاب يناقش قصيدة دانتي جابرييل روزيتي «مصباح هيرو» (المكتوبة في عام 1875) التي يتكلم فيها عن مصباح مخصص لأنتيروس لا يمكن أن يضيئه إلا حب يدوم طول العمر، خلافاً للحب المجنون الذي يشعر به «لاندر» تجاه «هيرو» فيسوقه إلى محاولة عبور البحر مرات ومرات عساه يصل إليها فلا ينتهي إلا إلى الغرق.

في الوقت نفسه، تمكن قراءة مشهد المصارعة الشهير في رواية دي إتش لورنس «نساء عاشقات»، حسبما يذهب ستيفانسن، بوصفه تصويراً للتنافس بين إيروس وأنتيروس. في هذا المشهد، يتصارع روبرت بركن وجيرالد كيرش «في رشاقة، وانتشاء، ومثابرة، ولاعقلانية في نهاية الأمر». يتعلم بركن من الاعتداء الذي يتم التعبير عنه بصورة آمنة لكنها مكتملة الأركان في القتال: يتعلم أن زواجه من أورسولا برانجون لا بد، لكي ينجح، من أن يتضمن عناصر من الاتحاد والمشقة. والانفصالية داخل الاتحاد لا يمكن تحقيقها إلا بإبقاء الأضداد في حالة توتر، بحسب قراءة الناقد فرانك كيرمود للورنس. لا بد أن يتعلم الأحباب كيف يصلون إلى «توازن يتجاوز فكرة الحب الجنسي العادية».

تتناول أسطورة إيروس وأنتيروس، بالدرجة الأساسية، مثلثاً غرامياً. فالأخوان يتشاجران شجارهما الأخوي، متنافسين على لفت نظر أفروديت. وذلك نوع الحب المانح للحياة لأن إيروس وأنتيروس برغبان في شيء يقع خارج اهتماماتهما الثنائية المباشرة. إنّ حبهما ثلاثي: إذ أن الذي يضرمه إنما هو شيء يقع خارج حب الواحد فيهما للآخر. وما بينهما من تنافس هو الذي يجذبهما إلى عناصر حياتية خارجية، أو إلى الحياة ذاتها بعبارة أخرى. ومن هنا ينضج إيروس.

يبدو أن العنصر الثلاثي هذا هو الذي كان يثير اهتمام أفلاطون على وجه الخصوص حينما بنى أسطورة أنتيروس في واحدة من محاوراته. ففي محاورة فايدروس، يصف أفلاطون ما يحدث عندما يقع فردان في الحب: ترغمهما الدوافع الرومنتيكية على المضي معاً بدفع من الرغبة. ولا يبدو للناظرين واضحاً ما إذا كان المتحابان يتحابان أم هما حبيسا عنف متبادل. ولكن من المحبين من ينعمون بما يطلق عليه أفلاطون الدينامية الأنتيروسية. إذ يبدو كأنهما قادران على فصل أحدهما عن الآخر، والرجوع قليلاً إلى الوراء، ومراقبة ما يجري. وحينئذ ينفتح فيما يبني الاثنان مكاناً ثالثاً، يمنح قدرة ضرورية للوعي بالذات.

هذه الفجوة يكون لها تأثير دراماتيكي على العلاقة. إذ لا يعود المحرك الوحيد للحبيبين هو اشتهاء أحدهما للآخر. بل تتكون بمرور الوقت حميمية ثمينة فيها سمة أشبه بالصداقة. وهنا يتذكر المرء كلمات الكاتب والشاعر الفرنسي أنطوان دو سانت أكزوبري، إذ يقول إن «التجربة تعلمنا أن الحب ليس أن ينظر اثنان كل في عيني الآخر، بل أن ينظر اثنان في اتجاه واحد». عندما يكون اثنان حبيبين فإنهما ينظران كل في عيني الآخر، لكنهما كصديقين يمكن أن ينظرا معاً إلى الأمام. يبدآن في رؤية الحياة فيما يتجاوزهما، وبدعم من أحدهما للآخر، هما الواقفان الآن في الحب، يمكن أن تتقدم خطاهما نحو المستقبل.

المثير في رؤية أفلاطون أنه يعتقد أن هذه الصداقة المعززة للحياة هي نتيجة الحب الإيروتيكي. فلسفته ليست إنكاراً لإيروس، وإنما هي توجيه بارع، أو حتى توجيه ماكر، هدفه إكراهه على العمل. وهذا يفسر المعنى الأصلي لعبارة «الصداقة الأفلاطونية» Platonic friendship. فليس المقصود هو غياب أي إحساس إيروتيكي بين صديقين أفلاطونيين (فكرة يمكن أن يعدها أفلاطون ضرباً من ضروب الإنكار)، بل إنّ التعبير الجنسي عن العنصر الرومنتكي، يكون قد تم استيعابه والارتقاء به. ولو أننا استخدمنا الاصطلاح الفرويدي، لقلنا إن الغريزة الإيروتيكية قد تم التسامي بها. فإذا بطاقتها وقد أصبحت في خدمة السعي المشبوب إلى الفلسفة، وهو احتمال جذاب في ضوء أنّ الفلسفة بالنسبة لأفلاطون كانت تعني إنماء حياة قادرة على الازدهار. ولكي نصل إلى هذا المعنى بلغة أقل تعقيداً، نقول إن مثل هذين الاثنين يستطيعان سبيلاً لا إلى أن يعيشا معاً، بل أن يعيشا معاً وبخير. الحب الثلاثي، الذي يقام فيه فراغ داخل العلاقة من أجل الحياة (والحب) يتجاوز حدود الثنائي نفسه، هو أرقى أشكال الحب البشري لأنه يجعل الحياة الطيبة أمراً ممكناً. وكما يقول الفيلسوف أنطوني برايس في «الحب والصداقة عند أفلاطون وأرسطو» (الصادر عام 1989)، فإن الحبّ «بالنسبة للروح الواعدة المتحفزة، هو التلقي والاستجابة والانفتاح على الجديد». هو حب أقل خوفاً وانكفاء على الذات من حب نرسيوس، وفيه متسع لآخرين مثل أنصاف أرسطوفانيس الملتصقة. أو هو، بتعبير أيريس مردوك في قراءتها لأفلاطون، «وعي متزايد وإحساس بالعالم فيما وراء الذات».

لكن هذا يثير سؤالاً مهماً. لو أننا نريد مخرجاً من الحدود الرومنتيكية، فأين لنا اليوم أن نبدي احترامنا لأنتيروس؟ كريغ ستيفانسن يوضح أن ما تشيع تسميته لدينا بتمثال إيروس عند نافورة نصب شافتسبيري في بيكاديلي، ما هو إلا أنتيروس. لقد نحته في عام 1893 ألفريد جلبرت الذي كان يشعر أن حياته الشخصية ما هي إلا انعكاس للتنافس بين الأخوين. رأى جيلبرت صورة شخصيته المندفعة في إيروس، وكان يتوق إلى أن يجد في نفسه المزيد من الواقعية المرتبطة بأنتيروس. ولا بد أنه كان يشعر أن هذا الإله هو الأنسب لتحريك القلب في ذلك الجزء من لندن. وإن لي أنا، على المستوى الشخصي، طقساً سرياً أقوم به، إذ أحني رأسي في إجلال لأنتيروس كلما مررت به: شكراً لك على هذا الجانب المراوغ من جوانب الحب.

* كاتب وصحافي بريطاني، متخصص في الفلسفات القديمة. كان قسيس كنيسة إنكلترا قبل أن يصير كاتباً. النصّ المترجم مقتطف من أحدث أعماله «الحب: هذا هو المهم» (2013)

من سلسلة «خروج شيرين وفرهاد» للفنان الإيراني بابك كاظمي (100×70 سنتم ـ 2012)

العالم الهادئ

جيفري ماكدانييل

ترجمة **جولان حاجي**

جاهدةً لتدفعَ الناس
إلى النظر أكثر في عيون بعضهم البعض،
وإرضاءً للبُكم أيضاً،
قرّرت الحكومة
أن تخصّصَ لكلّ شخص يومياً
مائة وسبعاً وستين كلمة بالضبط.

عندما يرنُّ الهاتف، أضعه على أذني
من دون أن أقول ألو. في المطعم
أومئ إلى حساء الدجاج بالمعكرونة.
إني متألقمٌ جيداً مع الطريقة الجديدة.

وفي وقت متأخر من الليل، أتّصلُ بحبيبتي في
مدينة أخرى،
وأقول مزهوّاً: «استخدمتُ اليوم ثماني وخمسين
كلمة فقط.
ادّخرتُ الباقي من أجلك»

وحين لا تجيب،
أدرك إنها قد استنفدتْ كلَّ كلماتها،
فأهمس ببطء: «أنا أحبّك»،
أربعاً وخمسين مرة ونصف.
بعد ذلك، نبقى على الخط فحسب،
وكلانا يستمع إلى تنفُّس الآخر.